القلب الكسير

لواشنتون ارفنغ الكاتب الاميركي

من الناس من اذا جاز سنّ الصبوة سنّ الاحلام والآمال وانغمس في ملذّات الحياة وافراحها ولهوها بردت عواطفهُ وشابت فيهزأ باحاديث الحب واخبار المحبين و يعدُّها من روايات المؤلفين وغلوّ الشعراء وتخرصات الكتاب لكنني رجل قضيت العمر في درس اخلاق البشر فما ازددت الاَّ اعتقادًا بخطإ من يرى هذا الرأي فقد تنبثك الظواهر بخمود العواطف وتطمر هموم الحياة نار الصدور في رماد المشقات ويتبرقع الوجهُ بحجاب من التصنع في الكلام والاشارات والابتسام بحسبما تفرضهُ رسوم التمدن الحاضر لكنَّ النار لا تزال مخبوَّة في الفؤاد حتى اذا ما انقدت جذوتها تأجّجت فاندلع لهيبها وحرق ما حولها . فانا مؤمن باله الحب الاعمى مسلم بتعاليمهِ اعترف بوجود القلوب الكسيرة واعتقد بالموت الناتج عن الحب العقيم .

واقول ان مرض الحبّ في الرجال يندر ان يكون وخيم العاقبة على انهُ كثير الشيوع في النساء كبير المضارّ وكم من فتاة حسناء اودى بها فاودعها البلى في نضارة العمر وزهرة الصبا

خلق الرجل نزوعًا الى العلا وحب الرفعة طماعًا في المجد والغنى والشهرة فهو مدفوع ابدَ الدهر باخلاقهِ وطبيعتهِ الى التمرّس بالآفات ومصارعة الدهر وعراك الايام فما الحبُّ لهُ سوى زينة يتخذها لشبابهِ او صوت يتغنى بهِ بين فصول رواية الحياة التي يمثلها لان الشهرة مطلبهُ والغنى لذتهُ ولان غايتهُ رفعة المقام والتسلُّط على بني جنسهِ بما يحرزهُ من القوة والثروة

اما المرأة فحياتها سلسلة من الحبّ وعالمها قلبها فاذا طلبت الرفعة والسيادة ففيهِ واذا تولتها المطامع فالى كنوزهِ فالحبّ تتجر نفسها وفي بحرهِ يغرق قلبها فاذا انكسرت السفينة ذبلت آمالها وانمحت حياتها وانكسر فؤادها وما ادراك ما انكسار القلوب

وقد رأيت اله الحب يجور على الرجل فيذيقهُ صنوف العذاب والشقاء ويجرحهُ جروحًا بليغة قد يطول زمان الاستشفاء منها وتعدمهُ الهناء ردحًا من الزمان لكنهُ خلق قوي شديد فيتغلب على هواجسهِ وقلقهِ بما ينخرط فيهِ من اعمال الحياة او بجهادهِ في تيّارها او بما يكرعهُ من ضروب الملذات والمسرّات حتى اذا ما استحال عليهِ البقاء في ارض اصابتهُ فيها السهام ارتحل عنها راكبًا جناحَي النعامة الى حيث تلقى لنفسهِ الراحة والعزاء

اما حظ المرأة من ذلك فغير حظهِ ونصيبها غير نصيبهِ فحياتها حياة وحدة وعزلة وتأمل سميرها افكارها وانيسها عواطفها فاذا صارت هذه العواطف وتلك الافكار رسل الحزن

والقصة اليها فاين المهرب من الشقاء والى اين المفرّ الى العزاء . فقد خلقت لتكون موضوع الحبّ والاعتناء فاذا شقيت في الحبّ كان قلبها كالحصن هاجمهُ الاعداء فاحتلوهُ وخرّبوهُ ونهبوهُ وتركوهُ قاعًا صفصفًا

وكم من عينين براقتين اظلمتا حزنًا وغمًّا وخدين ذبلت ورودهما كدرًا وجزعًا وكم من قامة تزري بالغصن الاملد وراها الثرى لسرّ مدفون في قلب كسير . فالمرأة تكنّ ما في فؤادها من كلوم الحب كما تفعل الحمامة اصاب سهم الرامي منها مقتلاً فضمت جناحيها الى جانبيها وغطت بهما جرحها فهي مطبوعة على الحياء ميالة الى السكينة والهدوّ فاذا لقيت سعادة في الحبّ فلا تجسر على التفوّه بها لنفسها واذا اصابت شقاء فيه اضمرت ما بها ودفنتهُ في اعماق صدرها بين اطلال رغد العيش وبقايا هنائهِ ودعتهِ وعادت فاذا الكون قد اسودّت سماؤهُ واظلم نهارهُ فلا هي ترى في الحياة حبورًا ولا في العيش نعيمًا فتبتعد عن جميع ما يشرح الصدر ويخفق لهُ القلب من الالعاب والرياضات والاحاديث والاجتماعات والافراح والمسرات وتكتحل عيناها بالسهاد وتهجرها الراحة وتلازمها الاحلام المزعجة وينمّص الحزن دمها فتبيت خيالاً تروّحهُ الرياح وتعبث بهِ الامراض حتى اذا ما انقضى برهة من الدهر اذا بالاهل والاصدقاء ملتئمون حول ضريحها يعجبون لذلك الغصن كيف ذوى قبل الاوان ولتلك الطلعة البهية كيف يواريها التراب وتأكلها الديدان ويحدّثونك عن زكام اصابها فقضى عليها او توعّك المّ بها فاودى بحياتها لكنهم جهلوا الآفة التي انجلتها وامتصت الحياة من عروقها فغادرتها عرضة للادواء وفريسة للاسقام

انظر اليها كانها دوحة قد زانت الغاب بجمالها واعتدالها وزهوتها اينعت غصونها واخضرّت اوراقها وانبسط ظلُّها وانما لا يغرّنك ما ترى من جمال وحسن منظر فان في اصلها دودة تنخرها فلا تلبث ان تذوي وانت تخالها باسقة فتطرق اغصانها اطراق الضعيف وتنتثر اوراقها حتى اذا ما اشتدّ بها الضعف سقطت في سكينة الغاب بين جاراتها فاذا تأملها متأمل او نظر اليها ناظر لم يفطن الى الصاعقة التي انقضّت عليها فاتلفتها

وقد شاهدت بنفسي كثيرات من الفتيات علق بهنّ النحول وغلب عليهنّ الذهول ففارقتّ الحياة كانفاس تصعدها الى السماء وكنت ازعم فيمن زعم ان موتهنّ نجم عن ثقل وطأة الامراض الفتاكة كالسلّ وامراض الصدر والضعف فلا البث حتى اجد السبب الاوّل واراى خلال تلك الادواء اعراض الشقاء في الحبّ

واليك خبر واقعة حدثت في ارلاندا واشتهر امرها بين سكان تلك البلاد

لما اتقدت نيران الثورة في ارلاندا كان في من قبضت عليهم الحكومة فتى من خيرة شبانها فحاكمتهُ متهماً بخيانة وطنهِ وصدر حكم المحكمة عليهِ بالاعدام فأُعدم بين اسف القوم وحزنهم وكان لاعدامهِ وقع شديد في نفوس مواطنيهِ ورنة في جميع اطراف البلاد لأنهُ كان في عنفوان الشباب وزهوة العمر كريم الاخلاق ذكي الفؤاد باسلاً استجمع ما يستحب في الفتيان من الصفات الكريمة والمناقب المحمودة وابدى اثناء محاكمتهِ شمماً وعزة نفس يندر ان يرى مثلها حتى اذا ما اتهموهُ بخيانة بلادهِ اتقدت فيهِ الحمية وانفجرت ينابيع الشهامة وعزة النفس فدافع دفاعاً حشوهُ البلاغة وعنوانهُ الشرف والترفع عن الدنايا لكن ذلك لم يدفع المقدور ولما دنت الساعة ولم يبقَ في القوس منزع حرّك قلوب القوم واثار نخوتهم بخطبة عزم فيها على الخلَف من بني بلادهِ ان يعيدوا النظر في قضيتهِ بعد موتهِ لتبرئتهِ مما عُزي اليهِ من التهم وهو منها براء وبالغ من اسف الناس لمصابهِ ورثائهم لبلواهُ ان اعداءهُ الالداء انتقدوا خطة السياسة التي افضت الى اعدامهِ

وانما كان بين القلوب الخافقة والنفوس الولهانة فؤاد خيَّم الحزن عليهِ قلب فتاة بارعة في الجمال جامعة لطيب الخلال احبها الفتى واحبتهُ قبل ان تعصف بهِ انواء السياسة فصادف منها فؤاداً طاهراً خالياً فتحت لهُ مخادعهُ واشتدت بينهما ربط الحب والولاء حتى اذا ما جاهر المجاهرون بعداء حبيبها وكثر اعداؤهُ وحسادهُ واصبح الخطر والموت يتهددانهِ زادت ثباتاً في حبهِ وولاء لعهدهِ وكأن مصائبهُ ضاعفت قوة عواطفها ولا غروَ فان ما المَّ بهِ حرّك شفقة الاعداء فأخلقَ بمن وهبتهُ قلبها ان تزداد لهُ ولاء وفي عهود حبها امانةً وثباتاً وأخلقَ بمن انطبعت صورتهُ في فؤادها وشاركت نفسهُ نفسها ان يحقها الحزن عليهِ والخوف على حياتهِ بما احدق بها من المخاطر حتى انتهى امرها بالموت مفرق الاحباب

سل الذين رأوا ابواب القبر تفتح ثم تقفل على اعزّ من احبوهُ وسل الذين وقفوا امام الضريح منفردين عن الخلق كأنهم في عالم مظلم موحش فارقوا فيهِ احبّ الناس اليهم واجملهم في عيونهم — سلْ هؤلاء ينبئوك بانكسار القلوب واما انباك مثل خبير

وكانت مصيبة الفتاة مزدوجة فانها خسرت حبيبها وقضي محكوماً عليهِ بما يلبس اسمهُ ثوب العار فلم يكن لها من الذكرى ما يبرّد لوعتها ويخفف الم فراقهِ عليها وجفت عيناها فلا ترسلان الدموع تلك الدموع المباركة المرسلة كالندى من السماء لانعاش القلوب ايام الكرب وساعات الفراق فراق الاحباب

وزاد شقاءها سخط ابيها عليها لحديث حبها فطردها من بيتهِ مهانة عقاباً لها واعلاناً لفرط

احتقارهِ لحبيبها لكنها لم تعدم الاصدقاء والمحبين الذين انتصبوا لحمايتها والاخذ بناصرها فانها لم تكد تخرج من بيت ابيها حتى فتح لها كبراءُ القوم واعيانهم بيوتهم وقبلوها على الرحب والسعة والارتدبون مشهورون بمكارم الاخلاق وسرعة التأثر وحب الضيافة. ولو كان الحنوّ واللطف والمحبة وطيب المعاملة تزيل غصص الفؤاد لزال ما بها بما افرغوا عليها من الرعاية والاكرام وباجتهادهم في تخفيف كربها وتبريد لوعتها فكانوا يذهبون بها الى محافل اللهو ومجامع الانس لعلّها تجد في اللهو والاحاديث والمعاشرة ما ينسيها حزنها او ما يفطمها عن تذكر واقعة حبها ومصاب من تهواهُ لكنّ مساعيهم حبطت وخابت آمالهم فانّ من المصائب ما يحلُّ بالمرء فيحرق النفس حرقًا ويشويها شيًا ويدخل الى روض السعادة والهناء فيزيل ما فيهِ فلا يعود يطرح زهرًا ولا يحمل ثمرًا

وكانت الفتاة لا تستنكف من مرافقة اصدقائها الى حيث يريدون ولا تعترضهم فيما يدبرون لها لكنها كانت في المجامع والمحافل كمن هو في اعماق الوحشة والوحدة فكانت تسير فيها ذاهلة عمّا حولها تلوح عليها امارات الشقاء كانها تسخر بما يطيف بها من الملذات واسباب اللهو والفرح وكأن فواعل السرور كانت تندفع اليها فاذا بلغتها وقفت لا تجسر على التقدم احترامًا لما بها من الحزن المفرط والاسى الشديد

ورآها محدثي في سهرة راقصة تتكرّ فيها الراقصون فكان الطباق كاشدّ ما يمكن ان يكون عليهِ اذ كانت تسير بين اسباب الفرح والحبور وقد سكر القوم بخمرة الجذل والنشاط كأنها خيال حزين تردّى ثياب البهجة ليخدع القلب الكليم وينسيهُ ولو ساعةً مصائبهُ واحزانهُ. وبعد ان تمشت زمنًا يسيرًا في مقاصير القصر الفاخرة بين جماهير الراقصين والراقصات كأنها مستهواة جلست على سلّم الاوركسترا وحدّقت ببناصرتيها في الفضاء كمن لا يشعر بما حولهُ ثم اندفعت تغني بما انفجر في قلبها من الحزن اغنية شجية بصوت رخيم وتلحين بديع بسيط ترجم عما كانت فيهِ من الشقاء فتألب القوم حولها مدهوشين ولم تبقَ عين الاّ دمعت او قلبٌ الاّ انصدع رثاء لبلواها وحزنًا لمصابها

وكان ممن عرفها ضابط باسل فهذا احبها شديدًا واعلن لها شغفهُ بها وقال في نفسهِ ان فتاةً تخلص الولاء للموتى الى هذا الحدّ لجوهرة لمن يتزوجها فعرض عليها ان تقترن بهِ فرفضت طلبهُ لان نفسها كانت ممزوجة بذكرى حبيبها فالحّ عليها وزاد في اكرامها وكان من خيرة الفتيان خلقًا وخلقًا ورأت هي ما كانت عليهِ من الفاقة وانها طريدة من بيت ابيها عيال على اصدقائها فقبلتهُ زوجًا بعد ان افهمتهُ انهُ انما يملك قيادها واما قلبها فلآخر فقبل منها هذا الشرط واقترنا

وحملها الى صقلية آملاً ان تبديل الهواء والمكان ينسيانها ذكرى ما صادفتهُ من العناء والشقاء فيغيض ينبوع حزنها على حبيبها الاول فالفى منها زوجة فاضلة وامرأة كريمة ولكن كان السوس قد نخر اصل الشجرة فلم تستطع رد السعادة التي غادرتها . وقصر الدواء عن بلوغ غاية الداء ونفذت في المرض حيل الاطباء فنخر الحزن قلبها وهدَّت ذكرى حبيبها ركنها وذابت كما تذوب الشمعة حتى انطفأت فواروها الثرى قتيلة القلب الكسير

ونظم فيها الشاعر مور الارلندي ابياتاً في هذا المعنى

نزل الموت بها مبعدةً عن حبيب بات في ارض الشقاء
حولها الاصحاب يبكون التي لم تذق في عيشها طعم الهناء
فادارت وجهها عنهم وقد هاجها تذكارها عهد الولاء
وبكت والعين ترحى حبَّ من قلبها في قبره يبغي الثواء

رنَّت اغنيَّةً يا طالما رددتها عند روضٍ او غديرْ
وحبيب القلب يصغي طرباً قبل ان حلَّ بهِ الخطب الكبيرْ
اطرب السامع ما غنتهُ إذْ خالها قد جازت الامر العسيرْ
اترى السامع يدري انهُ نغمٌ ردَّدهُ القلبُ الكسيرْ

عاش كي يسعد من يهوى وما تَ بحبِّ الوطن الغالي الثمينْ
لم يكنْ يبغي سوى هذين في ال عمر حتى صار في الترب دفينْ
فتجزيهِ بلادٌ مات في حبها الدمعَ على مرّ السنينْ
والتي تهواهُ ان تلحقْ بهِ فعلى عهد الولا يبقى الامين

قبرها فابنوهُ في الروض النضيرْ حيث نور الشمس يكسوهُ البهاءْ
تطلع الشمس عليهِ فتنيرْ ارضهُ ايام يعتلُّ الهواء
كسلامٍ جاء كالمسك الذفيرْ من بلاد الغرب من ارض الشقاء
وادفنوا في قبرها القلب الكسيرْ علَّهُ يلقى بهِ بعض العزاء

خليل ثابت